مجلة أبحاث
ISSN: 0834-2170
EISSN2661-734X

المجلد 6 / العـــــــدد: 1 (2021)، ص 231–240

دور الخطاب الفلسفي كأفق للتعايش في ظل خطاب الكراهية

The role of philosophical discourse as a horizon for coexistence in hate speech

د/ رضا شريف، جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله rida.cherif65@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 25 /2021/04 تاريخ القبول: 28 /2021/05 تاريخ النشر: 2021/06/05

ملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع خطاب الكراهية باعتباره ظاهرة اجتماعية عرفها الفضاء العمومي الإنساني في عالم اليوم، حيث تقف وراء هذا الخطاب مصادر مختلفة سياسية ودينية وثقافية وعرقية وإعلامية وقد أصبح يشكل قلقا وجوديا واضحًا بالنسبة للإنسان المعاصر وعلى هـــذا الأساس يأتي الخطاب الفلسفي في تقديرنا كرؤية بديلة تسعى إلى تقديم حلول وآليات ممكنة لتجفيف منابت هذا الخطاب مهما كانت مبرراته وعليه جاءت هذه الدراسة لتقديم مقاربة فلسفية باعتبار الفلسفة تحمل أفقا نحو التسامح والتعايش الذي يحلم به الإنسان المعاصر.

الكلمات المفتاحية: خطاب الكراهية، الخطاب الفلسفي، الفضاء العمومي، العنف، الكراهية.

Abstract:

This study deals with the topic of hate speech as a social phenomenon known to the human public sphere in today's world, where different political, religious, cultural, ethnic and media sources stand behind this discourse, and it has become a clear existential anxiety for the contemporary man. On this basis the philosophical discours comes in our appreciation as an alternative vision that seeks to provide solutions and mechanisms. It is possible to dry up the sources of this discourse, whatever its justifications. Therefore, this study come to present a philosophical approach, considering philosophy carries a horizon towards to hate and coexistence that the modern man dreams of.

Keywords: Hate Speech; Philosophical Discourse; Public Space; Violence; The Hatred.

* **رضا شريف**

1.مقدمة:

لقد أضحى خطاب الكراهية من المفاهيم والبرادغمات الرائجة في فضاءات البحث والدراسات المختلفة باعتبار الكراهية والدعوة إلى العنف من خلال هذه الخطابات أضحت تشكل هاجسا من الهواجس الأنطولوجية بالنسبة للإنسان المعاصر وقد تعددت مصدرية هذا الخطاب وتنوعت ضروبه السياسية والثقافية والمعرفية والدينية والرياضية، وهذا ما يجعلنا نعيش قلقا حقيقيا على أمننا واستقرارنا الذي يفترض أن يقوم على السلم والمحبة والتعايش والتقارب والتثاقف وعلى هذا الأساس يكون خطاب الكراهية ظاهرة تحتاج إلى قراءة عميقة ومتأنية من طرف تخصصات وحقول معرفية مختلفة على غرار السوسيولوجيا والأنتروبولوجيا وعلم النفس وعلم السياسة والقانون، والفلسفة وغيرها من التخصصات التي تحتم علينا اليوم إحداث رؤية بينية لتشريع هذه المفاهيم والخطابات ومنه الوقوف على خلفياتها وأبعادها والبحث عن المخارج المتاحة للحد منها وتجفيف منابعها التي تغذيها، ولعل الخطاب الفلسفي واحد من الآفات المعرفية القادرة على تقديم مقاربة تجاه هذه الظاهرة من منطلق أن الفلسفة في جوهرها تؤمن بالاختلاف والتعايش والتسامح وقبول الآخر المختلف فكريا ولغويا وعرقيا ودينيا وثقافيا، وهذا ما نلمسه في نماذج فلسفية مختلفة قديمة وحديثة ومعاصرة، ولأجل تقديم هذه القراءة تحت عنوان هذه الورقة البحثية – دور الخطاب الفلسفي كأفق للتعايش في ظل خطاب الكراهية – نأمل أن نحقق جملة من الأهداف أهمها الوقوف على مفهوم خطاب الكراهية وطبيعته وأشكاله وخلفياته فضلا عن تقديم الخطاب الفلسفي

البديل الذي من شأنه أن يستوعب خلفيات هذه الظاهرة ويقدم البدائل المتاحة لأجل بناء مجتمع إنساني يؤمن بلغة التسامح والتعايش ويشجب مختلف أشكال الكراهية والعنف بمختلف ضروبه.

2. المقاربة التحليلية

1.2 الخطاب الفلسفي وخطاب الكراهية أية علاقة:

إن المشتغل والمهتم بمسألة خطاب الكراهية في علاقته بالخطاب الفلسفي يجد نفسه أمام جملة من التساؤلات والإستشكالات الكبرى على أساس أن خطاب الكراهية له منطلقاته ومآلاته وخلفياته، والخطاب الفلسفي أيضا له منطلقاته وأهدافه وغاياته، لكن الذي يجمع بين الطرفين هو اللحظة الصدامية التي يظهر فيها خطاب الكراهية بمختلف أشكاله السياسية والثقافية والإعلامية والدينية والعرقية...الخ على أنه خطاب ضد فئة أو جماعة أو حضارة أي أنه يبرز كراهيته وبغضه تجاه آخر ما مختلف في الدين والملة أو الجنس أو اللون وغيرها من الاختلافات، حينها يظهر الخطاب الفلسفي باعتباره خطابا يروم إلى التسامح والاختلاف وقبول الآخر والتعايش معه مهما كانت صورته الأنطولوجية وحضوره الواقعي أي النظر إليه على أنه إنسان يتقاسم مع غيره لحظات الوجود، ونحن إذ نتحدث عن خطاب الكراهية على أنه يحمل لونا واحدًا هو الكره والبغض وعدم قبول الآخر فإننا إذا اتجهنا صوب الخطاب الفلسفي فإننا لا نجده لونا واحدًا ورؤية تتجه كلها صوب التسامح والتعاطف واحترام الآخر المختلف، بل على العكس من ذلك نجد الخطاب الفلسفي في بعض صوره ولحظات التاريخية خطابا عدائيا وعنيفا مشجعا على العنف والتعصب حيث يوضح الفيلسوف الفرنسي "جون بول سارتر" أن العلاقة الأساسية بين الذوات الحديثة هي علاقة صراع على المستوى الوجودي فالذات في جوهرها ومضمونها هي رغبة وهذه الرغبة دائما ما تصطدم برغبة الآخر، حيث يقول ما نصه: "إنَّ الرغبة في الشيء تصبح رغبة في الآخر رغبة في انتزاع اعتراف الآخر، فالصراع بين الذوات على المستوى الوجودي صراع قاتل من أجل إثبات أصالة الذات واعتراف الآخر بها"1 وهذا التصور الذي يقدمه لنا الوجودي الفرنسي جون بول سارتر تصور ينطبق على الأفراد والجماعات بمختلف أشكالها السياسية والدينية والثقافية...الخ فالعنف ظاهرة متأصلة في جميع الذوات كرغبة تبحث عن تأكيد الذات وحتى الإيديولوجيات الحاضرة في العالم اليوم تقوم على أساس هذه النزعة العنيفة كرغبة لانتزاع الاعتراف من المختلف معها وغير بعيد عن التحليل السارتري لظاهرة العنف والكراهية باعتبارها جوهرا في الذات يذهب سيغموند فرويد إلى أنه توجد مساحة داخل الإنسان لم يصلها الفهم التنويري العقلاني الذي بشر به فلاسفة التنوير والعقلانية والمبشرين بمفهوم الإنسان العقلاني وهذه المساحة هي مصدر كل إشكال العنف والدمار والكراهية، لقد تساءل فرويد هل الإنسان في علاقته بالآخرين محب للخير والتسامح والاعتراف والتعايش أم هو مدفوع إلى الاعتداء والظلم والتسلط وكره الآخرين؟ وتحت عنوان بارز كتبه فرويد "قلق في الحضارة" سجل الرجل رؤيته التحليلية التشاؤمية حول الإنسان ومصيره في الوجود باعتباره كائنا مدفوعًا من داخله بكومات متلاطمة من اللاَّوعي حيث تقوده الغرائز العمياء المتنصلة من كل القيم والمبادئ فالإنسان عند فرويد ليس كما يتصوره البعض على أساس أنه كائن طيب متسامح يحب الآخرين ويتمنى لهم الأمن والسلام فهذه الصورة الجميلة عن الإنسان ليست إلا محمولاً في غير موضعه وهي تعبير يحمل نفاقا بداخله لأن حقيقة الإنسان خلاف ذلك فالإنسان كما صوره فرويد كائن يحمل حقدًا وعنفا وخزانا من إشكال الانتقام والعدوانية ومبرر ذلك لديه هو أن كل "إنسان ميال إلى استغلال الآخر والتفوق والاعتداء عليه لإشباع حاجاته العضوية والنفسية فالإنسان مدفوع عضويا إلى إشباع حاجاته من العدوان كما هو مدفوع إلى إتباع حاجته من الجنس"2 هكذا يستقر رأي فرويد على أن العنف والكراهية والانتقام ليست صفات تاريخية بقدر ما هي صفات جوهرية قائمة في الذوات الإنسانية، أي أنها تملك عمقا في كل ذات بشرية ولا علاقة لها بالواقع كما يتصور البعض وبالخصوص الماركسيين الذين ربطوا العنف والصراع بالوضع الاجتماعي الذي بمجرد أن يرتقي إلى ما هو أفضل يزول

هذا العدوان والصراع لدى الإنسان ويصبح إنسان متسامحا ومتعاطفا مع غيره وهذا ما يرفضه فرويد بالمرة كون العنف عنده جوهر في الذوات. "العنف كما الجنس هو السمة الأكثر جوهرية في الإنسان قبل أن يكون سمة رئيسية في التاريخ"3 والحقيقة أن الطرح الفرويدي لظاهرة العنف باعتبارها متأصلة في الذوات كان هوبز قد أكدها في كتاباته عندما بين أن مصادر العنف موجودة في الطبيعة البشرية وهي مبنية على أصول ثلاثة: التنافس، الحذر، الكبرياء. فحياة البشر من البداية إلى النهاية تتأصلها هذه الغرائز حيث التنافس بينهم يدفعهم إلى الانتقام ويولد لديهم الكراهية ويصبح الحذر أسلوب حياة وهذا كله بداعي المحافظة على الكبرياء والمكانة التي يجب أن يحظى بها البشر لذلك فقط يصرح هيوز بأن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"4 والحقيقة أن هذا الوصف الذي يقدمه هوبز حول الإنسان لا يتوقف عند حدود المرحلة الطبيعية وإنما هو وصف مطلق يليق حتى بالمرحلة المتحضرة والمدنية وهذا ما يؤكد بأن الشر والظلم والعداء صفات متأصلة في الذوات حسب هوبز فعالم الإنسان حسبه عالم ذئاب فالحياة الإنسانية تحفل بالذئاب والكل يتربص بالكل لأجل الاستحواذ وبسط السيطرة وهذه غاية في الوجود وكأن الحرب هي قدر البشر كما صورها لنا هيراقليطس عندما اعتبر العنف ضروري للعالم مختزلا ذلك في مقولته الشهيرة: "الحرب أب كل شيء"5.

إن هذه القراءات المقتضبة التي استأنسنا بها ضمن هذه الورقة توحي لنا بأن الرؤية الفلسفية في بعض جوانبها تحمل شكلا قاتما ولونا تشاؤميا في نظرتها وقراءتها لظاهرة العنف وخطاب الكراهية باعتبارهما وجهان لعملة واحدة وهي رفض الآخر وعدم الاعتراف به كشريك في الوجود يتطلب التعامل معه بلغة الاعتراف والتسامح، ولكن هذه الصورة القاتمة والتحليل الدراماتيكي سرعان ما يأفل وتبرز مكانه صورة جميلة وقراءة تنويرية تشع بأطروحات ترى في الخطاب الفلسفي المنبت الأساسي القادر على مواجهة خطاب الكراهية والعنف بمختلف أشكاله على أساس أن الفلسفة منذ القديم جاءت لترتقي بالإنسان وتخرجه من حالة الفقر الأخلاقي والتروع الحيواني إلى منطق القيم والتسامي الأخلاقي الرفيع الذي يجعله إنسانا متعايشا ومتقاربا مع الغير مهما كان شكل هذا الغير، فالفلسفة كنصوص ومدونات وأنساق كبرى وضعتنا في الكثير من نماذجها في موقع متميز يعبر عن مضامين الخطاب الفلسفي الراقي الذي يوجه الإنسان نحو الفضيلة والخير والقيم الإنسانية النبيلة، بعيدًا عن الضروب القائمة على التمييز والاختلاف باسم الدين أو اللغة أو العرق أو الثقافة أو التاريخ أو الهوية...الخ لقد حضرت النصوص الفلسفية التنويرية سواء في فضاء الثقافة الغربية من اليونان وإلى اليوم أو في إطار الثقافة العربية الإسلامية كنصوص تحمل خطابات مناهضة كمختلف أشكال الكراهية وعلى هذا الأساس نحاول أن نستدعي هذه النصوص ضمن هذه الدراسة بغرض الوقوف على مضامينها وكيف شكلت أفقا للتعايش والاختلاف بدلاً عن الرؤية المحبطة والقراءة العدمية التي تجعل الإنسان يشمئز من ماضيه ويخاف حاضره ولا يرى في مستقبله إلا الخراب والدمار، وفق ما صورته لنا بعض القراءات الفلسفية التي حكمت على الإنسان بأنه مسكون بالكراهية والعدوانية والعنف تجاه الغير ولأجل معرفة الأفق الفلسفي البديل نتساءل كيف حضر الخطاب الفلسفي كأفق لستر ثقافة التسامح والتثاقف والتعايش في ظل خطاب الكراهية؟

2.2 آليات الخطاب الفلسفي في مواجهة خطاب الكراهية:

لا يختلف اثنان في الاعتراف بأن خطاب الكراهية صار ظاهرة إنسانية مستعصية بالنظر إلى تقاطع هذا الخطاب مع ألوان مختلفة متداخلة معه مثل حرية الرأي وحرية التعبير والحرية الذاتية...الخ فضلا عن هذا فإن خطاب الكراهية تقف وراءه خلفيات إيديولوجية وسياسية وثقافية وعرقية تغذيه وتدعمه تحت مسميات مختلفة. وعليه أصبح هذا الخطاب يجسد واقعا قلقا كونه يحمل مشروعا تدميريا للوجود الحقيقي الذي يفترض أن يتأسس على الأمن والسلام والاستقرار، وخطاب الكراهية إلى اليوم لا يزال مفهوما ملتبسا وغامضا ولا نكاد نجد له تعريفا واضحًا حيث جل التعريفات التي قدمت حوله تعكس نظرة معينة وخلفية ما تقف وراء هذا التعريف أو ذاك ولكن يمكن القول أن خطاب الكراهية إجمالاً أنه "خطاب يتضمن هجوما أو تحريضا أو انتقاص أو تحقير من شخص أو مجموعة من الأشخاص بسبب أن أحدهم أو بعضهم أو جميعهم يحملون صفة إنسانية مميزة مثل العرق أو الدين أو

النوع الاجتماعي (...) وعادة يستخدم هذا الخطاب أو يتطور ليؤصل وينشر دعوة إلى الكراهية والتمييز ضد حاملي تلك الصفات"6 وحسب هذه المقاربة يصبح خطاب الكراهية أداة لتحفيز المشاعر وإثارتها وتعبئتها بشكل سلبي في اتجاه معين فيصبح تحريضا ودعوة لاحتقار المختلف في الدين واللّغة والثقافة والانتماء والهوية وغيرها من ضروب التمايز، وقد ورد مفهوم خطاب الكراهية في وثيقة الأمم المتحدة باعتبارها منظمة تسعى إلى السلم والأمن في العالم بأسره على نحو مفاده أن خطاب الكراهية هو: "نوع من التواصل الشفهي أو الكتابي أو السلوكي الذي يهاجم أو يستخدم لغة ازدرائية أو تمييزية بالإشارة إلى شخص أو مجموعة على أساس الهوية وبعبارة أخرى على أساس الدين أو الانتماء الإثني أو الجنسية أو العرق أو اللون أو الأصل أو نوع الجنس أو أحد العوامل الأخرى المحددة للهوية"7 وقد بينت لوائح الأمم المتحدة في هذا الصدد أن خطاب الكراهية عادة ما يستمد وجوده من مشاعر التعصب والعنصرية وغيرهما من الخلفيات المؤدلجة. وبالرغم من خطورة هذه الظاهرة على حياة الشعوب والمجتمعات إلا أنه وإلى اليوم لا يزال مفهوم خطاب الكراهية مفهوما ملتبسا وفضفاضا حتى داخل الهيئات الرسمية ولم يتم تناول حظر خطابات الكراهية صراحة في أغلب المواثيق الدولية حيث ظلت هناك إشكالات تطرح فيما يخص متى يصنف هذا الخطاب ضمن الكراهية؟ أم ضمن حرية التعبير؟ وأين يتم وضعه بالتحديد؟ ومتى يصبح صاحب هذا الخطاب سواء كان فردًا أو مجموعة تحت طائلة العقاب والمساءلة القانونية؟ لذلك حاولت المفوضية السامية لحقوق الإنسان بشأن خطاب الكراهية تعريفه بالقول أنه: "جميع أشكال التعبير التي تنشر أو تحرض أو تشجع أو تبرر الكراهية العرقية أو كره الأجانب أو معاداة السامية أو غير ذلك من أشكال الكراهية المبنية على التعصب"8 هذا وبالرغم من إعداد الكثير من المواثيق وضبط العديد من الاتفاقيات الدولية إلا أن خطاب الكراهية لا يزال مفهوما زئبقيا تتجاذبه الكثير من القناعات والتصورات التي لها علاقة بالعنصرية والاستعلائية والمركزية الحضارية التي يتغنى بها الكثير في إطار التباين الحضاري بين الشمال والجنوب. وعليه يمكن القول إجمالا أن خطاب الكراهية هو في النهاية موقف ورأي يحمله شخص أو تحمله فئة أو جماعة أو مؤسسة أو جهة حزبية أو سياسية أو دينية تجاه آخر مختلف وهذا ما يجعل العالم يعيش حالة من الخوف واللاّأمن واللاّاستقرار فكيف السبيل إلى تجاوز هذا الوضع المعقد باسم الخطاب البديل الذي تحمله الفلسفة كأفق إنساني.

إنّ الفلسفة في جوهرها قائمة على الاختلاف والتعدد ولا تؤمن بمنطق الرأي الواحد المنفرد فاستمرار الفلسفة في التاريخ مرهون بالاختلاف والتعدد والاستماع إلى الآخر تحت طائلة الرأي والرأي المعارض وهذا ما حملته المتون الفلسفية الكبرى وجارته الأنساق الفلسفية بمختلف مسمياتها بالرغم من ضرورة الاعتراف بأن ثمة بعض القراءات قدمت صورة قاسية وقاتمة عن دور الفلسفة في ظل العنف والكراهية وهذا ما تناولناه منذ البداية ولكن هذه الصورة لا تكاد تظهر أمام النصوص الكبرى التي تأسست على مفاهيم مركزية على غرار التسامح والتعايش والتقارب والحب والإخاء بين الجميع مهما كانت التناقضات التي يحملونها في هوياتهم الثقافية أو الدينية أو اللّغوية وغيرها من التباينات ولأن هذه الورقة البحثية لا يمكن أن تستوعب الكم الهائل من هذه القراءات المتسامحة والرافضة لمنطق العنف والكراهية سوف نحاول الاستئناس ببعض النماذج التي نراها شكلت حضورًا مكثفا في هذا المنحى سواء في حقل الثقافة الغربية أو في إطار الثقافة العربية الإسلامية، والهدف من وراء هذا التقصي المعرفي هو محاولة لتقديم مقاربات فلسفية يمكن استثمارها راهنيا لأجل تجاوز الكثير من الصراعات والاحتقانات التي كثيرًا ما تطفوا إلى سطح الواقع الإنساني والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فالصراع العرقي وصراع البشرة والهوية في الولايات المتحدة الأمريكية هو صراع مؤسس على الكراهية، وصراع الأقليات في بعض البلدان العربية هو صراع كراهية، وصراع المهاجرين في البلاد الأوربية هو صراع كراهية، وخطاب الكراهية تجاه المسلمين والإسلام باسم ما يعرف بالإسلاموفوبيا هو صراع كراهية، ونظرة العرب والمسلمين للآخر المختلف هو صراع تغذية الكراهية التاريخية وهكذا فإن عالم اليوم مليء بالصراعات والأحقاد والعدوانية التي تقف ورائها خطابات الكراهية سواء

من طرف السياسيين أو الأكاديميين أو الفنانين أو رجال الدين وغيرهم ليبقى خطاب الكراهية خطابا مهيمنا ومسيطرًا يحتاج إلى خطاب بديل يهذبه ويجعله خطابا للسلم والأمن والمحبة.

ولعل من الشعارات التي أصبحت ضرورة ملحة في عصرنا هذا بالنظر إلى الانتشار المقلق لمختلف أشكال التطرف والكراهية بين الشعوب والأمم والحضارات وحتى داخل المجتمعات الواحدة هو شعار التسامح والتعايش وإذا قلنا التسامح فإننا نعني بذلك الحقل الفلسفي أو الدور الذي يمكن أن تؤديه الفلسفة في هذا السياق باعتبار التسامح مفهوما مركزيا ضمن فلسفة القيم وفلسفة الأخلاق وقد راهن على هذا المفهوم فلاسفة كبار كي يكون وسيلة من وسائل الحد من مشاعر الكراهية والدعوة إليها، "فتاريخ الفلسفة يدلنا على أن التسامح كان دائما مقوما أساسيا من مقومات التفلسف"9. لقد رافع فيلسوف قرطبة ابن رشد عن علوم الغير أي آراؤهم ومعتقداتهم في مسائل الكون والطبيعة والإنسان وغيرها من المسائل ودعى إلى ضرورة الأخذ بها والنظر في مضامينها والاستفادة منها بل وذهب إلى أبعد من ذلك عندما التمس الأعذار لأصحابها إذا ما أخطؤوا في ما قدموه من قراءات وتفسيرات لمختلف المسائل التي عالجوها والغير عند ابن رشد يجب أن نقبله ونتفاعل معه بروح عالية حتى وإن كان مختلفا معنا في الملة والعقيدة أو كما قال: "سواء كان ذلك الغير مشاركا لنا في الملة أو غير مشارك"10 هذا وقد رد ابن رشد على المتكلمين والفقهاء الذين كانوا يرفضون علوم الأوائل بالتنمية إلى الطابع التاريخي التراكمي للمعرفة البشرية يقول ابن رشد ما نصه: "يجب علينا إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرًا في الموجودات واعتبارًا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم عليه"11. وإذا نحن تتبعنا نصوص ابن رشد في نفس السياق نجد التسامح يبلغ مداه ويصل قمته في موقفه من آراء المخالفين والخصوم حينما نجده يلوم الإمام أبو حامد الغزالي على أساس أنه لم يتفهم و لم يتقبل موقف الخصوم بل حكم بفساده دون النظر في المنطلقات التي أفضت إليه، وفي هذا يقول ابن رشد ما نصه "إنه من العدل أن يقام بحجتهم في ذلك ويناب عنهم إذ لهم أن يحتجوا بها"12 والمقصود في هذا الشاهد هم أصحاب الفرق وبالخصوص المعتزلة وكذا الفلاسفة الذين حكم عليهم الغزالي بالخطأ واتهمهم بالضلالات والشناعات لأجل بناء رؤية فلسفية يكون التسامح منهجها الأساس يعود فيلسوف قرطبة إلى الاستئناس برأي المعلم الأول في مجال المحاجة العقلية والقبول بها حيث يقول: "ومن العدل كما يقول الحكيم أرسطو أن يأتي الرجل من الحجج لخصومه بمثل ما يأتي به لنفسه (...) ينبغي لمن آثر طلب الحق إذا وجد قولا شنيعا و لم يجد مقدمات محمودة تزيل عنه تلك الشنعة أن لا يعتقد أن ذلك القول باطل وأن يطلبه من الطريق الذي زعم المدعي له أنه يُوقَف منها عليه ويستعمل في تعلم ذلك من طول الزمان والترتيب ما تقضيه طبيعة ذلك الأمر المتعلم"13 هكذا نجد التسامح في فلسفة ابن رشد يرتقي إلى مرتبة العدل حينما يصل الأمر به إلى ضرورة الاعتراف بالآخر المختلف اعترافا فكريا حتى وإن كان على غير صواب فإن الحكمة تقتضي عدم احتقاره أو تأنيبه أو إصدار حكم قاس تجاهه وهذا في تقديرنا خطاب فلسفي راق جدًا لا نجد مثيله في الخطابات الفلسفية القديمة منها والمعاصرة. فابن رشد يقدم لنا الخطاب الفلسفي المؤسس على منطق الاعتراف وقبول الآخر والتماهي مع تصوراته التي إن كانت مبررة ومبرهن عليها استندنا إليها وإن حملت شيئًا غير ذلك، تركناها دون أن نسيء إلى أصحابها وهذا هو الدور النقدي للفلسفة حيث تتجه نحو نقد الأفكار والتصورات لا إلى القدح والتشهير بأصحابها تحت طائل الملّة والعرق واللّغة والهوية وغيرها من المواصفات التي تميز أمة عن غيرها أو حضارة عن غيرها من الحضارات، وإذا نحن غادرنا فضاء الثقافة العربية الإسلامية باتجاه الفكر الغربي نجد الخطاب الفلسفي المدافع عن التسامح وضرورة الاعتراف بالمختلف الديني والعرقي واللّغوي والهوياتي...الخ حاضرًا بقوة في كتابات الفلاسفة التنويريين فالفيلسوف الألماني إيمانويل كانط يرى أن الكراهية والتعصب الديني هو سبب الشرور والحروب المذهبية التي مزقت ألمانيا ومختلف البلاد الأوربية والتي كانت بين مذهبين أساسيين الكاثوليكي والبروتستانتي وهذا ما كلف أوربا

حينها ملايين الضحايا من الطرفين، لقد طالب كانط من خلال نصوصه بضرورة التخلي عن المفهوم الكلاسيكي والظلامي للدين وتبني مفهوم جديد قائم على العقلانية أي على أساس الحوار والتواصل والاعتراف بالاختلاف وقبول المختلف ونبذ كل أشكال الحقد والكراهية والعمل على تجسيد مصالحة تاريخية ينتصر فيها العقل على الشهوات والنزوات ويحترم فيه الإنسان أخاه الإنسان مهما كان موقعه الإيماني أو العرقي أو الثقافي...الخ وجدير بالذكر أن كانط يعد رائدا من رواد الفكر المثالي الألماني بالنظر إلى حجم الأفكار التي كان يدعو إليها في صورتها المتعالية التي تروم إلى بناء مفهوم جديد للإنسان الإنسان الأخلاقي الذي يرفض العنف والقتل والشتم والتعرض للآخرين بالمكيدة والعدوانية وإنما عليه أن يكون إنسانا راقيا يخاطب الناس في إنسانيتهم حيث يصبح تعامله مع الآخرين على المستوى الذي يتعامل به مع نفسه أو كما يقول كانط في إحدى قواعده الأخلاقية "افعل كما لو كان على مسلمة فعلك أن ترتفع عن طريق إرادتك إلى قانون طبيعي عام"14 وهذه القاعدة الأخلاقية اعتبرها كانط مبدأ أساسي لسائر القواعد الأخرى التي يجب أن تقدس الفعل الأخلاقي وتجعل من الإنسان غاية في ذاته وهذا ما تبرزه القاعدة الأخلاقية التي يقول فيها كانط: "افعل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك بوصفها دائما وفي نفس الوقت غاية في ذاتها ولا تعاملها أبدًا كما لو كانت مجرد وسيلة"15.

إن هذه القواعد الأخلاقية الكانطية ترتقي بالسلوك البشري إلى مصاف الإنسانية فهي لا تخاطب جنسا بعينه ولا أمة بذاتها بقدر ما هي خطاب إنساني كوني يصلح لجميع البشر وهذا ما يجعل الخطاب الكانطي خطابا تأسيسيًا لمفهوم التسامح ونبذ الكراهية والعنف بمختلف أشكاله. وفي إطار الفلسفة الألمانية دائما لا يمكن الحديث عن التقارب والتواصل والتثاقف مع الغير دون العودة إلى فيلسوف التواصلية يورغن هبرماس هذا الأخير الذي أعطى للفضاء العمومي حقه من التحليل الفلسفي وطالب بضرورة محاربة كل أشكال الصراع والفوضى الأخلاقية الحاصلة بين البشر باعتبارها وسيلة من وسائل تأجيج الفتن والصراعات العرقية والدينية والإثنية وما استفحال خطاب الكراهية راهنيا إلا نتيجة لمثل هذه السلوكات التي كرستها الطوائف والفرق والإيديولوجيات بمختلف أشكالها فالعالم المعاصر حسب هبرماس صار حلبة للعنف والصراع الذي تغذيه أفكار منحرفة وعنيفة باسم حرية الرأي وحرية التعبير ولكنها في النهاية تعكس حالة من العنصرية والاستعلاء المقيت الذي يعود بنا إلى ما قبل الحضارة والمدنية، لذلك يركز الفعل الفلسفي لدى هبرماس على فكرة الفضاء العمومي **–Espace publique–** باعتباره مفهوما مركزيا مصاحبا للفلسفة التواصلية لديه قد اهتم به هبرماس ضمن أعماله المختلفة متحدثا عن الدور الذي يمكن أن تقوم به الفلسفة في إطار الفضاء العمومي فالفلسفة في نظره قدمت دورًا تاريخيا منذ الإغريق حيث ساهمت في بناء مجتمع المدنية اليونانية والارتقاء به من حالة الصراع والفوضى إلى حالة الحكمة والحوار أي أنها ارتقت به من حالة الميتوس إلى مرتبة اللوغس وجعلت منه إنسانا يؤمن بالعقل كفاعلية إنسانية ولكن هذه المهمة التي قامت بها الفلسفة قديما تتطلب جهودًا مضاعفة اليوم لأن الفضاء العمومي العالمي راهنيا صار معقدًا ومتشابكا إلى درجة كبيرة من التعقيد حيث انتشرت الأفكار المكرسة للعنف والقتل والتشويه والقدح في المكاسب والمقدرات وصارت العلاقات البينية محكومة بمنطق الكراهية ورفض المختلف وهذا ما دعمته بشكل ملفت وصريح وسائل الإعلام وقنوات التواصل بمختلف أشكالها فالعالم اليوم لم يعد بريئا ومنسجما بقدر ما هو حلبة كبيرة لصراع الأضداد والمصالح، وصراع الأفكار والحضارات والديانات وغيرها من الصور التي تفيد بأن هناك حرب كراهية طفت إلى السطح أحيانا باسم السياسة وأحيانا باسم الدين وأحيانا باسم الرياضة وبهذا يحاول خطاب الكراهية أن يظهر بتمظهرات مختلفة وبالنظر إلى هذه التصورات الجذرية التي عرفها الراهن الكوني يذهب هبرماس إلى الاعتراف بالدور الصعب الذي يناط بالفلسفة اليوم إذ لابد أن تساهم في إعادة تشكيل الفضاء العمومي، وفي هذا السياق دعى إلى ضرورة تأسيس فضاء عمومي كوني ديمقراطي تحكمه أخلاقيات الحوار والنقاش لأن تعطيل التواصل والحوار من العوامل الأساسية

المؤدية للعنف والكراهية والفلسفة عليها أن تبحث عن النموذج الراقي في التواصل بين البشر يصير فيه الجميع سواسية لأن الديمقراطية تلغي كل الحوافز والموانع العرقية واللّغوية والدينية وتؤسس لمفهوم التقارب البشري النزيه والمتسامح مع الغير، "فالتواصل الأفقي هو الوسيلة الوحيدة لتجاوز حالة العنف والصراع لأن هدف الفلسفة هو إعادة بناء شروط تحقيق توافقات بين الذوات التي من شأنها أن تقلص دائرة العنف"16 فمهمة الفلسفة حسب الطرح الهبرماسي هي تنظيف الفضاء العمومي من كل الأوهام والأفكار الهدامة والمشجعة على الصراع والعنف تحت أية مضلة والعمل على انفتاح العقل البشري على الأفكار الحرة على أساس أنه لا يحق لأي أحد أن يكون مالكا للحق والحقيقة وأن الجميع يقف على مستوى واحد في هذا الوجود. فالحق في الاختلاف والمطالبة بالتنوع مشروع إنساني تتحمله الفلسفة اليوم ويجب أن يحقق أهدافه التي تعد الكرامة الإنسانية هدفا من أهدافها النبيلة.

إن الطموح الفلسفي التواصلي لدى هبرماس يتقاطع إلى حد كبير مع النظرة الأخلاقية التي لمسناها في الطرح الكانطي سابقا فهبرماس يحمل رغبة وطموحا فلسفيا يسعى إلى تحقيق فعل التواصل مع الغير والتعامل مع المختلف والمغاير باعتباره غاية في حد ذاته دون استغلاله أو محاولة استعماله لأغراض نفعية ومصلحية ضيقة وهو بذلك يهاجم الفلسفات المصلحية والبراغماتية التي أفرزها الفكر الليبرالي المتوحش الذي حول البشر إلى مجرد مصالح ووسائل لتحقيق أكبر قدر ممكن من المنافع، لقد طالب هبرماس بضرورة الإسراع في خلق كونية أخلاقية تأخذ جميع البشر بالحسبان وتعاملهم في أرقى إنسانيتهم وكرامتهم مهما كان وضعهم التاريخي أو الحضاري أو الاجتماعي والثقافي، لأن العبرة بالإنسان لا بالمستوى الذي يحوز عليه والقول بالكونية الأخلاقية لديه على أنها الضامن لتقارب البشر وتجسير للعلاقات الإنسانية بينهم كونها تؤمن بالمساواة بين الجميع وتزيح كل أشكال التفاوت اللاّمشروع وغير المبرر يقول هبرماس ما نصه: "إنَّ الرغبة في تحقيق فعل التواصل مع الغير تجعل تعامل الآخر باعتباره غاية في حد ذاته وأن نبتعد عن استغلاله باعتباره إما وسيلة أو أداة لتمرير أغراض وبهذا نتمكن من خلق كونية أخلاقية"17 هكذا يقدم هبرماس تصوره لوظيفة الفلسفة في إطار نظرية الفعل التواصلي وهو تصور يحاول أن يبرز الأهمية التي تحظى بها الفلسفة في الفضاء العمومي الذي أحدثت فيه الأفكار الظلامية القائمة على الكره والحقد والكراهية والعنصرية والشوفينية المقيتة تحولا جذريا مخيفا ومقلقا، وعليه فإن الرهان لدى فيلسوف التواصلية كان رهانا أخلاقيا يمكن أن تؤديه الفلسفة باعتبارها أفقا للتعايش والتثاقف ومجالا رحبا للاعتراف بالمختلف داخل الفضاء الإنساني بشكل عام، وفي السياق ذاته يحضر معنا الخطاب الفلسفي المعاصر أيضا من خلال القراءة التي دافع عنها الفيلسوف الفرنسي ادغار موران الذي اعتبر خطاب الكراهية شكل من أشكال الهمجية التي يجب علينا محاربتها بكل الطرق الحضارية المتاحة في محاولة فلسفية تأمل في بناء ثقافة وهوية كوكبية يتصالح فيها الجميع مهما كانت خصوصياتهم الثقافية أو انتماءاتهم الدينية أو تركيبتهم الوثنية، والثقافة الكوكبية التي يدعو إليها موران ثقافة شاملة تحكم الجميع بدون استثناء سواء كانوا من دول الشمال أو دول الجنوب، فهو يراهن على إزالة كل الرواسب والموانع التاريخية التي تحيل دون تحقيق هذا المسعى التصالحي بين الأنا والآخر وفي تقديره أن الخطابات السياسية والثقافية والإعلامية والدينية التي تشجع على الكراهية تقف وراءها مصالح وأهداف مؤدلجة غير بريئة تسعى إلى تحطيم العالم حتى يصير الإنسان فيه غريبا مع بني جنسه وهذا ما يؤدي في الغالب إلى اللاّأمن واللاّاستقرار وخلق فضاءات عمومية مشحونة بالسخرية والاستهزاء من الآخر المختلف فالثقافات العالمية اليوم تعيش حالة من الفوضى الأخلاقية حيث تحاول وسائل الإعلام صناعة أفكار جاهزة تصنف من خلالها البشر إلى عباقرة متفوقين وأصحاب قدرات ومهارات وبالمقابل تصور لنا شعوب أخرى لازالت تنتمي إلى التخلف والبربرية والعنف والقتل والاعتداء وفي الغالب تصنف الشعوب الشرقية ضمن هذه الدائرة المشينة، وهذه الصورة النمطية التي يرسمها السياسيون والفنانون ورجال المال والأعمال وغيرهم هي السبب الرئيسي في تأجيل المصالحة التاريخية بين الذوات المختلفة في الدين واللّغة والثقافة والحضارة...الخ وعليه لابد من إيجاد الحلول المتاحة للحد من خطابات الكراهية والتميز والتصنيف اللاّمبرر واللاّمشروع للحضارات والشعوب وفي هذا يراهن على ضرورة الامتثال إلى ما يسميه بالسياسة

الحضارية فهي وحدها قادرة على "أن تأخذ على عاتقها مهمة القضاء على بربرية العلاقات الإنسانية المتمثلة في استغلال الإنسان للإنسان، وشطط السلط والأنانية والتعصب العرقي والقساوة والكراهية واللاّتفاهم"18 وهذه الرؤية التي يقول بها موران هي في تصوره قادرة على دعم مشروع الثقافة الجماهيرية من خلال نشر ثقافة الاعتراف بالمختلف واحترامه في خصوصياته مهما كانت دينية، عرقية ، لغوية...الخ وقد ذهب موران إلى التفصيل في أهمية هذه السياسة الثقافية الكونية قائلا "الثقافة الجماهيرية تتوجه بندائها إلى الاستعدادات العاطفية لإنسان عالمي وهمي قريب من الطفل والبدائي ولكنه حاضر دائما في الإنسان الصانع الحديث"19 معنى هذا أن الطموح الذي يسعى إليه صاحب نظرية المنهج التعقيدي هو عودة البشر إلى النزعة البدائية الأولى في بساطتها وبراءتها وميلها للقيم الإنسانية والأخلاقية وفي نفس الوقت الإبقاء عل إنسان الحضارة والمدنية وبالتالي الوصول إلى ما يعرف بالإنسانية النموذجية القائمة على الحب والأخوة والسلام والتعاون ورافضة لكل أشكال الصراع والكراهية المؤدية إلى الحروب والصراعات وتقسيم الشعوب إلى أصناف حسب العرق والدم وغيرها من الاعتبارات الإيديولوجية الحمقاء وقد سمى موران العالم البدائي بعالم العاطفة والعالم الحداثي بعالم الحضارة، والحداثة آملا منه في الجمع بين العالمين في نموذج واحد هو النموذج الكوني الإنساني القائم على الثقافة الجماهيرية حيث قال: "الثقافة الجماهيرية توحد بصورة حميمية بين هذين العالمين عالم العاطفة وعالم الحداثة فمن خلال الثقافة الجماهيرية يسهل الجمع بين قيم الإنسانية في الإنسان البدائي وبين قيم الإنتاج في الإنسان الحديث"20 هكذا يبدو الأمر مع موران حينما رأى في الاستثمار الحقيقي في الإنسان من خلال مخاطبة وعيه وضميره حلاً من الحلول المتاحة للقضاء على كل العوائق والموانع التي تحول دون بناء مشروع الإنسان الكوني المتشبع بقيم النبل والسلام والتسامح حينها فقط يتم نزع الحقد والكراهية والعنف من نفوس البشر وبالتالي العيش في سلام وأمن واستقرار وخلاصة ما يمكن أن نقوله حول الطرح الفلسفي لدى ادغار موران هو أنه يريد أن يؤسس لطابع إنسان كوكبي وشمولي تحكمه أخلاق التسامح العالمية حيث يقبل فيها البشر تمايزاتهم وتناقضاتهم وهذا ما يعرف لديه بالتأسيس للهوية الأرضية وهذا العمل مرهون حسبه بالوعي الجماهيري من جهة والإرادة السياسية العالمية من جهة ثانية بحيث لا تبقى حقوق الإنسان ومجابهة العنصرية وخطاب الكراهية مجرد شعارات ترفع في المحافل الدولية بقدر ما يجب أن تتحول إلى واقع كوني يعيشه الجميع على الأرض التي أنهكتها الصراعات والحروب والعنف بمختلف ضروبه وأصنافه.

3. خاتمة:

في خلاصة هذه الورقة البحثية حقيق بنا أن نتوج دراستنا هذه بجملة النتائج التي أفضى إليها اشتغالنا على دور الفلسفة كأفق للتعايش في ظل خطاب الكراهية الذي تعرفه البشرية في مختلف بقاع المعمورة، لنقل بأن خطاب الكراهية راهنيا يعد أحد البرادغمات التي تقف وراءها جملة من الأغراض والأهداف غير البريئة والتي يحاول الكثير من الأطراف والدوائر المختلفة ترويجها وتغذيتها بشتى الطرق والوسائل، وخطاب الكراهية مهما كانت مصدريته سواء كانت سياسية أو ثقافية أو دينية فهو في النهاية خطاب معادي لمعنى الإنسانية ودلالتها القيمية والأخلاقية لأن خطاب الكراهية كما رصدناه بحثا وتحليلا فعل وسلوك ورؤية وتنظير قائم على الإكراه ومولد للعنف ومشجع على الصراع ومحفز على التباعد والتطاحن والتقاتل وغيرها من ضروب العنف.

إن خطاب الكراهية الذي أضحى ظاهرة عالمية اليوم كرسته جهود الفاعلين الاجتماعيين بمختلف نقاطهم التي يشتغلون عليها برعاية إعلامية واسعة تعد مؤشرًا واضحًا على تأزم العلاقات بين البشر سواء في إطار الثقافات أو الديانات أو الأجناس المختلفة فيما بينها أو في إطار الثقافة الواحدة، حيث تنتشر الكراهية بين الطوائف والفرق والمذاب والأحزاب والجمعيات ومختلف الحساسيات والتنظيمات الاجتماعية.

إنَّ الفلسفة من جهة أنها نمط متميز من التفكير تؤمن بالاختلاف والتعدد بل هو جوهرها ونقطة ارتكازها ظلت حاضرة وبقوة في الفضاء العمومي حيث تظهر الأصوات المشجعة على الكراهية، فكانت الفلسفة خطابا بديلاً وصوتا للعقل الناقد لكل الأشكال الخطابية المحفزة على العنف والكراهية فالبعد الاجتماعي للفلسفة يعكس كل ما تدين به الممارسة الفلسفية للشروط الاجتماعية، وهي علاقة لا تنكشف كما مر بنا سابقا إلا من خلال تاريخ وحاضر الأنساق الفلسفية والبحث فيها كما يؤكد ذلك الحضور العميق بحثا عن الحلول المتاحة لأجل تجاوز الأزمة الوجودية التي تركتها خطابات الكراهية بمختلف أشكالها، فقد شعر الفيلسوف بما هو مثقف عضوي داخل البنية الاجتماعية والثقافية بأنه مطالب بالبحث في تفاصيل هذه القضايا الصميمية التي تهم الإنسان بشكل مباشر لأن الكراهية في النهاية تتجه بالوجود الإنساني نحو اللاَّأمن واللاَّاستقرار وهذا ما يعد تهديدًا صريحا لحياة البشر.

إن الأفق الفلسفي القائم على لغة السلام والسلم والتعايش والتسامح لهو قادر على خلق أطر اجتماعية جديدة، خالية من كل أشكال الظلامية والعنف ولغة المشاحنة ورفض الآخر والتعامل معه بمنطق العدو واللاَّمرحب به في الفضاء الاجتماعي، فدور الفلسفة اليوم في اعتقادنا أصبح أكثر من لازم بل صار أولوية اجتماعية بالنظر إلى أهم التحديات التي يعيشها الإنسان المعاصر اليوم.

والحضور الفلسفي في ظل انتشار خطاب الكراهية ليس هو الحل بقدر ما هو جزءا أساسي من جملة الحلول المتاحة التي يمكن أن يساهم فيها الدين والمجتمع والسياسة والإعلام وغيرها من المجالات التي يفترض أن تتعاون بصورة بينية آملاً في صناعة رؤية جديدة رافضة للعنف والكراهية ومهيأة لبناء مشروع إنساني كوني شعاره السلام والتسامح.

4. قائمة المراجع:

01- جون بول سارتر، الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الآداب، بيروت، 1998م، ص122.

02- سيغموند فرويد، خمسة دروس في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، د ط، دار الطليعة، بيروت، 1989م، ص110.

03- سيغموند فرويد، خمسة دروس في التحليل النفسي، مرجع سابق، ص133.

04- هوبز توماس، اللّفيثان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة حبيب حرب وبشرى صعب، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، 2011م، ص82.

05- إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، د ط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1985م، ص210.

06- مركز هردو، خطابات الكراهية وقود الغضب، الموقع الرسمي: *www.hrdoegy.ptorgr*، 2019م، ص06.

07- أنطونيو غوتيريش، إستراتيجية الأمم المتحدة وخطة عملها بشأن خطاب الكراهية، ماي 2019م، ص02.

08- الأمم المتحدة، تقرير مفوض الأمم المتحدة السامي لحقوق الإنسان، الدورة الثامنة والخمسون، الملحق رقم 36، نيويورك، 2003م، ص06.

09- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007م، ص21.

10- أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ط3، المكتبة التجارية المحمودية، 1968م، ص11.

11- أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، مرجع سابق، ص ص12-13.

12- أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، مرجع سابق، ص15.

13- أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، تهافت التهافت، تحقيق سليمان دنيا، ط3، ج1، دار المعارف، 1980م، ص349.

14- إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة عبد الغفار مكاوي، منشورات الجمل، 2002م، ص93.

15- إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، مرجع سابق، ص109.

16- Habermas J, Vérité et justification, tr Rainer Rochliz, Gallinard, 2001, p231.

17- يورغن هبرماس، المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل، 2001م، ص92.

18- ادغار موران، نحو سياسة حضارية، ترجمة أحمد العلمي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010م، ص37.

19- ادغار موران، نحو سياسة حضارية، مرجع سابق، ص39.

20- ادغار موران، نحو سياسة حضارية، مرجع سابق، ص41.